أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
ISSN 2779-2940 EISSN....-.... المجلد 03 العدد 01 (مارس، 2021) ص157إلى 174

بنيوية "جان بياجيه" التكوينية -قراءة في مرجعيتها الفكرية-

Jean Piaget's Cognitive Development: Study in the Intellectual Reference

د. بسمة زحاف*

جامعة العربي بن مهيدي -أم البواقي-zbesma91@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول
2020/10/20م	2021/01/11م

ملخص

نهدف من خلال هذا البحث إلى الكشف عن المرجعيات الفكرية، والأسس العقائدية للبنيوية التكوينية عند (جان بياجيه) بدءًا بواحد من أهم مقولاتها؛ وهو مفهوم (البنية) لمنظِّره العالم النفساني (بياجيه) الذي أرسى دعائم المنهج البنيوي، وأثبتَ جدواه، ومكَّنَ لظهور "تيارات ما بعد البنيوية"، ورغم ذلك فلا أحد يجحد جدوى إعادة قراءة هذا النتاج؛ بغية إعادة تمثّله، والاستفادة من مفاهيمه النظرية وآلياته الإجرائية. لقد تكشَّفَ بعد التقصّي تباين وجهات الدارسين في تبيان مفهوم (البنية) و(البنيوية)، فضلا عن (البنيوية التكوينية) التي هي امتدادات معرفية للاتجاه الماركسي، وبدرجةٍ أقل مقولات الفلسفة الوضعية. هذه الإستلهامات أتاحت مركزية لـ (البنيوية التكوينية) لم تحظ بها أيّ بنيوية أخرى حتى البنيوية الشكلية؛ وهذا لأنّ مردودية (البنيوية التكوينية) التحليلية تخدم وتنسجم وواقعَ الإنسان الاجتماعي والسياسي.

الكلمات المفتاحية: البنية؛ البنيوية؛ البنيوية التكوينية؛ جان بياجيه؛الماركسي؛ الوضعية.

Abstract

The present research aims at revealing the intellectual references and doctrinal foundations of Jean Piaget cognitive development. Starting with one of its most important statements which is the concept of "structure" of the psychologist Piaget –the first to make a systematic study of cognitive development and proved its worth- that has yielded enormously influential results. Despite this, no one denies the usefulness of re-reading this conclusion in order to re-represent it, and to benefit from its theoretical concepts and procedural mechanisms. After investigations, it was revealed that scholars differ in their views of the concept of "structure" and "structuralism," as well as "formative structuralism," which are cognitive extensions of the Marxist trend and, to a lesser degree, the categories of positivist philosophy.These inspirations allowed a centrality of "structural structuralism" that no other structuralism, even formal structuralism, had ever had. This is because the efficacy of the analytical "structural structuralism" serves and harmonizes with the social and political reality of man

Keywords: Structure; Structuralism; structural Structuralism; Jean Piaget; Marxist; positivism

*المؤلف المرسل

1.مقدمة

ننطلق في هذا البحث من فرضية تراكمية المعرفة الإنسانية حتى في حالة تلك النظريات التي تُحدِثُ القطيعة مع ما سبقها من التوجّهات والمدارس؛ كما هو الشأن بالنسبة للبنيوية التي جاءت كردّ فعل على الوضع "الذرّي" الذي ساد العالم الغربي في بداية القرن العشرين. ولئن أجمع الباحثون على عقم تيار (البنيوية)، وعملوا على تقويض مقولاته الكلّية وأسسه الأبستمولوجيا فأفسحوا بذلك المجال واسعًا لظهور تيارات (ما بعد البنيوية)، لكنّهم -مع ذلك- لم يتمكنوا من التنصل من (البنيوية) أو إلغائها تمامًا، بل إنّها لا تزال توجهًا فكريًا، ومقاربةً علميةً منتشرة ومتداولة؛ وهو ما سوّغ لنا البحث في هذا الموضوع الذي نطمح من خلاله إلى استكناه المرجعيات الفكرية للبنيوية التكوينية عند (جان بياجيه) عن طريق الإجابة عن إشكالية محورية؛ مقتضاها:

- ✓ ما هي الأسس الفكرية التي تقوم عليها هذه البنيوية؟
- ✓ ما هي الحمولات المعرفية للبنية كمصطلح مركزي في بنيوية (جان بياجيه)؟

اعتمدنا من أجل بلوغ هذا خطةً تنطلق من مفهمة مصطلح (البنية) فـ(البنيوية)، ومن ثمة بيان انقسام البنيوية إلى بنيويات، فإماطة اللثام عن مفهوم (البنية) عند (بياجيه) وأهم عناصرها، مع تعداد الخلفيات الفلسفية للبنيوية التكوينية؛ الأمر الذي استدعى المزاوجة بين المنهج التاريخي عند إثارة المرجعيات التأسيسية، والمنهج الوصفي أثناء توصيف المفاهيم من قبيل (البنية) و(البنيوية)... لنختم البحث بخلاصة لأهم نتائج الدراسة.

مفهوم البنية STRUCTURE

1.2. لغةً

تكاد تُجمِعُ المعاجم العربية التي تطرقت لمصطلح (البنية) على غرار لسان العرب على أنَّ كلمة (بنية) مشتقة من الفعل الثلاثي (بنى)، وتدل على معنى التشييد والبناء، أو الطريقة، أو العمارة، أو الكيفية التي يكون عليها البناء، أو الكيفية التي شُيِّدَ عليها (ابن منظور، لسان العرب، ص626). ولعل هذه الدلالة هي أبرز الدلالات، كما أنّها غير بعيدة عمَّا ورد في اللغات الأوروبية فـ: "كلمة **STRUCTURE**مشتقة من الفعل اللاتيني**STRUCRE**بمعنى يبني أو يُشيِّد. وحين يكون للشيء بنية في اللغات الأوروبية فإنّ معنى هذا -أولاً وقبل كل شيء- أنّه ليس بشيء (غير منتظم) و(عديم الشكل) AMORPHEبل هو موضوع منتظم له (صورته) الخاصة و(وحدته الذاتية)" (زكريا إبراهيم، 1990، ص29). ومن هنا تتحدّد خصائص (البنية) التي تتسم بالانتظام وعدم العشوائية وكذا الوحدة الذاتية.

2.2. اِصطلاحًا

اِختلف مفهوم (البنية) باختلاف اتجاهات المعرِّفين لها، على أنّ تعريف **أندري لالاند** وفق زَعْم **زكريا إبراهيم** أكثر عمومية وشموليةً لكل البنيات، والذي يقول فيه **لالاند:** "إنّ البنية هي كلّ مكوّن من ظواهر متماسكة يتوقف كلٌّ منها على ما عداه، ولا يمكنه أن يكون ما هو إلا بفضل علاقته بما عداه" (زكريا إبراهيم،1990، ص30)، ويتضح من هذا التعريف أنّ البنية مجموعة من العناصر المتماسكة فيما بينها لدرجة عدم قدرة الجزء على الاستغناء عن غيره من الأجزاء التي يربط بها عن طريق شبكة علاقات عليها وبها يتحدّد وجود البنية ككل.

2. ماهية البنيوية Structuralisme

منذ ظهورها تعدّدت التعريفات الرامية لتحديد الإطار العلمي للبنيوية، إذ حيّرت الباحثين، فذهب بعضهم إلى كونها مدرسةً أو تيارًا فكريًا، فيما ذهب البعض الآخر إلى عدّها منهجًا أحدث قطيعةً معرفيةً مع ما سبقه من المناهج. وإختلفت الرؤى في تصنيفها وتباينت، وقد قدَّم ميشيل فوكو ـ وهو أحد أقطاب البنيوية- توصيفًا لحالة التخبط هذه اتجاه (البنيوية) فقال: "إنَّه من الصعب إعطاء مفهوم للبنيوية؛ وذلك لأنّها تجمع اتجاهاتٍ ومباحثَ وطرقًا مختلفةً، إنَّه مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة؛ أيْ مجمل العلامات وآثار الإنسان التي تركها خلفه، والتي مازال يتركها إلى يومنا هذا" (وليد قصاب، 2009، ص124-125).

وكلمة (البنيوية) التي تشتق منها البنائية هي نزعة مشتركة بين عدّة علوم كعلم النفس، وعلم السلالات لتحديد واقعة بشرية بالنسبة إلى مجموع منظم، فهي نظرية قائمة على تحديد وظائف العناصر الداخلية في تركيب اللغة، ومبينة أنَّ هذه الوظائف المحدّدة لمجموعة من الموازنات والمقابلات تندرج في منظومات واضحة، وليس للأعضاء وجود مستقل إلا من خلال وظائفها العامة (عبد النور صبور، 1984، ص52).

ولعلّ أشمل تعريف (للبنيوية) هو ذلك الذي قدّمَه سمير سعيد حجازي حينما قال أنَّها: "منهج فلسفي وفكري ونقدي ونظرية للمعرفة، تتميّز بالحرص الشديد على التزام حدود المنطق والعقلانية، ويتأسس هذا المنهج على فكرة جوهرية مؤدّاها أنَّ الارتباط العام لفكرة أو لعدّة أفكار مرتبطة ببعضها البعض على أساس العناصر المكوّنة لها. أمَّا تلك العناصر فلا يُعنى بها المنهج إلا من حيث

ارتباطُها وتأثرها بعضها ببعض في نظام منطقي مركب" (سمير سعيد حجازي، 2004 ص213).

وجوهر هذا التصور عدّ (البنيوية) تيارًا فكريًا انبثق في أوروبا في بداية القرن العشرين الميلادي، وبلَغَ أوجَهُ في الستينات من القرن نفسه، وشمَلَ العلوم والفنون والآداب واللغة. وأساس هذا التيار النظر إلى العالم على أنَّه لا يتألف من عناصر أو وحدات ذات وجود مستقل أو منفرد، إنَّما من وحدات توجد ضمن بنية أو نسق عام يضبط علاقاتها المتبادلة لتكتسب معنى أو قيمة، إضافة إلى خاصيتها الفردية، وتفقد هذه الوحدات معانيها وأهميتها خارج النسق أو البنية. ذلك أنَّ: "الجزء لا قيمة له إلا في سياق الكل الذي ينتظمه" (يوسف وغليسي، 2007 ص64).

ويرى جون ستروك أنَّ (البنيوية) لم تظهر فجأةً في باريس، وأمَّا ما حدث في الستينات هو أنّ المعرفة العادية تحوّلت بقدرة قادر إلى شعار اتّخذه بعض الناس ووجدوه أمرًا مثيرًا؛ فجعلوا منه "موضة" فكرية شاعت شيوعًا تجاوز حدود المعقول (جون ستروك، 1996، ص7). إذ صيّرَها التبنِّي الواسع من قِبَل أيقونات الفكر وأعلام النقد والفلسفة واللغة والأنثروبولوجيا... صيحةً سارع إلى اعتناقها الكثيرون؛ وتعاظم مُريدُوها وتوزعوا عبر العالم، وتباينت تخصصاتهم وروافدهم وخلفياتهم ممّا أدى إلى انقسام (البنيوية) وتشعُّبها.

3. انقسام البنيوية إلى بنيويات

هيَّأ التوجهُ الشمولي الإدماجي للبنيوية هذه الريادة المنهجية الموضوعية في الدرس؛ إذ حقَّقَ لها القدرة على إحكام تصنيف الأشياء، ووفَّرَ لها طاقة الاستدلال على تأليف الكليات انطلاقًا من الأجزاء الذرّية، فهو يتجاوز السبل الذاتية،

ومسالك الارتسام الوجداني، بل ويتخطى كل التباس انطباعي، أو تقويم معياري (عبد السلام المسدّي، 1991، ص24).

إنَّ الصبغة العلمية للبنيوية وإمكاناتها التحليلية التي اتَّسمت بالموضوعية، والنأي عن الذاتية، والانطباعية، والأحكام المعيارية الجاهزة، أتاحت لها مشروعية الانتشار. ولأنَّ الظواهر التي تقاربها البنيوية كثيرة-كما سلَفَ الذكر- ومتعددة بتعدد الحقول المعرفية والعلوم التي تندرج ضمنها، بدأت تُظهر بعض الاختلالات؛ ولذلك إذا تأملنا البنيوية جيداً وبعمق دقيق بوصفها مقاربة ومنهجاً وتصوراً فإننا سنجد بنيويات عدة وليس بنيوية واحدة. فهناك:

-البنيوية اللسانية: مع دي سوسير، ومارتنيه، وهلمسليف، وجاكبسون، وتروبوتسكوي، وهاريس، وهوكيت، وبلومفيلد.

- البنيوية السردية: Narratologie مع رولان بارت، وكلود بريمون، وجيرار جنيت.

- البنيوية الأسلوبية: stylistique مع ريفاتير، وليوسبيتزر، وماروزو، وبيير قيرو.

- البنيوية الشعرية: مع جان كوهن، ومولينو، وجوليا كريستيفا، ولوتمان.

- البنيوية الدراما تورجية أو المسرحية Dramaturgie: مع هيلبو.

- البنيوية السينمائية: مع كريستيان ميتز.

- البنيوية السيميوطيقية: مع غريماس، وفيليب هامون، وجوزيف كورتيس.

- البنيوية النفسية: مع جاك لاكان، وشارل مورون.

- البنيوية الأنثروبولوجية: مع زعيمها كلود ليفي شتراوس الفرنسي، وفلاديمير بروب الروسي.

- البنيوية الفلسفية أو التكوينية: مع جان بياجيه، وميشيل فوكو، وجاك دريدا، ولوي ألتوسير.

البنيوية التكوينية:Genetic Structuralism

لا يمكن تصوّر وجود (البنيوية التكوينية) بمعزل عن (البنية) و(التكوين). فـ: "مفهوم البنية Structure، ومفهوم التكوين Genése هما الأساس الذي تقوم عليه البنيوية التكوينية" (حميد لحمداني، 1990، ص68).

و(**البنيوية التكوينية**) ترجمة علمية اصطلاحية للأصل الفرنسي (La Structuralisme génétique). وإذا كانت كلمة (La Structuralisme) محل اِتّفاق بين الباحثين، فإنَّ كلمة (génétique) موضع خلاف وتجاذب بينهم؛ فقال بعضهم أنَّ المصطلح يعني (**التوليدية**) فهي مشتقة من الأصل gène أي الجينة الوراثية؛ ومنها الفعل (générer) أي ولَّدَ، والصفة (générateur) أي مولِّد ... وكلُّها خاصة بحقل البيولوجيا.

وهي فرع من فروع البنيوية نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنيوية، في صيغتها الشكلانية، وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي -كما يسمى أحياناً- في تركيزه على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموماً. وأسهم عدد من المفكرين في صياغة هذا الاتجاه، منهم المجري جورج لوكاش، والفرنسي بيير بورديو.

غير أن المفكر الأكثر إسهاماً من غيره في تلك الصياغة هو الفرنسي الروماني الأصل لوسيان غولدمان. وكانت طروحات غولدمان نابعة -وبشكل أكثر وضوحاً- من طروحات المفكر والناقد المجري جورج لوكاش الذي طوَّر النظرية النقدية الماركسية باتجاهات سمحت لتيار كالبنيوية التكوينية بالظهور على النحو الذي ظهرت به، في الوقت الذي أفاد فيه أيضاً من دراسات عالم النفس السويسري جان بياجيه. وقد أشار غولدمان إلى تأثير بياجيه تحديداً في استعماله لمصطلح (**البنيوية التكوينية**) (محمد الأمين بحري، 2015، ص139).

ولئن كانت البنيوية التكوينية منهجًا يستهدف تفسير كل إنتاج إنساني بالاعتماد على تحليل البنيات، وهو منهج ماركسي ساهم في إرساء دعائمه لوكاش و غولدمان، ويتوخى بلوغ الجماعات، لفاعليته الحقيقية في الإبداع والنقد (سميح أبو مغلي،1997، ص19) فإنَّ لجان بياجيه أيادٍ بيضاء عليه؛ بوصفه المُنَظِّر الذي أصَّلَ مفهوم (البنية) وهو ما صرَّح به غولدمان في معظم إنتاجاته.

ولابدّ هنا من التنويه إلى أنَّ (التكوين) و(التوليد) لا يتضمن أيّ بعد زمني بعيد بالشيء المدروس إلى تاريخ ولادته ونشأته. فالبعد الزمني ثانوي جدًّا في هذا الشأن. أمّا **(البنية)** في المذهب الإيديولوجي -والمتمثل في البنيوية التكوينية- فلا تفهم بحد ذاتها خارج حدود الزمان والمكان؛ وإنّما من خلال تطورها، وتحرّكها، وتفاعلها، وتنافرها داخل وضع محدد زمانيًا ومكانيًا؛ وهذه مقولة ماركسية واضحة (جمال شحيد، 1982، ص28-29) وهي تعني أنّ (البنيوية الشكلية) تختلف عن (البنيوية التكوينية)؛ فالأولى تنحو باتجاه السكون والاستقرار؛ لأنّ علاقاتها محصورة فيما بين عناصرها المحدّدة، أمَّا الثانية فهي تتجه نحو التطور والاستمرار.

4. مفهوم (البنية) عند جان بياجيه (*) وأهم عناصرها

واجه مصطلح (البنية) مشكلة حقيقية في الفلسفة المعاصرة، وهذا نتيجة الاختلافات الناجمة عن تمظهرها وتجَّليها في أشكال متنوعة، حيث تعددت المفاهيم والتعريفات العلمية إزاءها؛ وهو ما أقّرَ به بياجيه صراحةً في قوله: "إنّ إعطاء تعريف موحد للبنية رهين بالتمييز بين فكرة المثالية الإيجابية التي تعطي مفهوم البنية في الصراعات، وفي آفاق مختلفة أنواع البنيات والنوايا النقدية التي رافقت نشوء تطور كل واحدة منها مقابل التيارات القائمة في مختلف التعاليم" (جان بياجيه، 1985، ص7) تشير هذه المكاشفة من بياجيه إلى صعوبة تقديم

تعريف واحد للبنية؛ ذلك أنَّ هذه الأخيرة تتجاذبها عدّة تيارات، ورؤى، وحقول معرفية متباينة الأصول المعرفية والتاريخية والفلسفية... فتناسلت على إثرها عدّة بنيويات.

أما إذا يَمَّمْنا قِبَلَ مفهومه هو ـأي بياجيه- للبنية فإنّنا نجده يقول: "وتبدو البنية بتقدير أولي مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة تبقى تغتني بلعبة التحويلات نفسها دون أن تتعدى حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية" (جان بياجيه، 1985). فالبنيةُ أولاً نسقٌ من التحولاتِ الخارجيةِ، وثانيًا لا يحتاجُ هذا النسقُ لأي عنصرٍ خارجيّ، فهو يتطورُ ويتوسعُ من الداخلِ بما يضمنُ للبنيةِ استقلالاً ويسمحُ للباحثِ بتعقُّب هذه البنيةِ.

أما عن خصائصِ البنيةِ التي أشارَ إليها جان بياجيه في تعريفهِ فهي ثلاثُ خصائصَ (زكريا إبراهيم، 1990، ص30-31) نعرضها كالآتي:

1.6. الكلية أو الشمول Totalité

وتَعني هذه السمةُ أنَّ البنية لا تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن (الكلّ) بل تتكوَّن من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق؛ من حيث هو (نسق). ولا ترتد قوانين تركيب هذا النسق إلى (ارتباطات تراكمية) بل تفضي على الكلّ من حيث هو كذلك خواص المجموعة باعتبارها سمات متمايزة عن خصائص العناصر. وليس المهم في البنية هو العنصر أو الكلّ الذي يفرض نفسه على العناصر باعتباره كذلك، وإنما المهم العلاقات القائمة بين العناصر، أعني عملية التأليف أو التكوين، على اعتبار أنَّ الكل ليس إلا الناتج المترتب على تلك العلاقات، أو التأليفات، مع ملاحظة أنَّ هذه العلاقات ليست إلا قانون النسق نفسه، أو المنظومة نفسها. كما أنَّ هذه الخاصية تُبرزُ لنا أنَّ البنيةَ لا تتألفُ من عناصرَ خارجيةٍ تراكميةٍ مستقلةٍ عن الكلِّ، بل هي تتكونُ من عناصرَ

خارجيةٍ خاضعةٍ للقوانينِ المميزةِ للنسقِ، وليس المهمُّ في النسق العنصرُ أو الكلُّ، بل العلاقاتُ القائمةُ بين هذه العناصرِ.

2.6. التحولات Transformations

أما عن خاصيةِ التحولاتِ، فإنها توضحُ القانونَ الداخليَّ للتغيراتِ داخلَ البنيةِ التي لا يمكنُ أن تظلَ في حالةِ ثباتٍ؛ لأنها دائمةُ التحولِ.

وتأكيدًا على ذلك ترى البنيويةُ أنَّ كلَّ نصٍّ يحتوي ضمنيًا على نشاطٍ داخلي يجعل من كلِّ عنصرٍ فيه عُنصرًا بانيًا لغيرهِ ومبنيًّاً في الوقت ذاته، ولهذا فقد أخذت البنيويةُ هذه السمةَ بعينِ الاعتبارِ لتُحاصرَ تحوّلَ البنيةِ وما قد يعتريها من بعض التغيير.

كما أنَّ هذه السمةَ تُعبّرُ عن حقيقةٍ هامةٍ في البنيويةِ، وهي أنَّ البنيةَ لا يمكن أن تظلَّ في حالةِ سكونٍ مطلق، بل هي دائمًا تقبلُ من التغيّراتِ ما يتضمنُ مع الحاجاتِ المحددةِ من قِبل علاقاتِ النسقِ أو تعارضاته، فالأفكارُ التي يحتويها النصُ الأدبيُ مثلاً تُصبح بموجبِ هذا التحولِ سببًا لبزوغِ أفكارٍ جديدة.

3.6. التنظيم الذاتي Auto réglage

أما عن خاصيةِ التنظيمِ الذاتي، فإنها تمكّنُ البنيةَ من تنظيمِ نفسِها كي تُحافظَ على وَحدتِها واستمراريتِها؛ وذلك بخضوعِها لقوانينِ الكلِّ.

وبهذا يتحقَّق لها نوعٌ من "الانقلاب الذاتي"، ونَعني به أن تحولاتِها الداخليةَ لا تقودُ إلى أبعدَ من حدودها، وإنّما تُولّدُ دائمًا عناصرَ تنتمي إلى البنيةِ نفسِها، وعلى الرغم من انغلاقها فإنّ هذا لا يَعني أن تندرج ضمن بنيةٍ أخرى أوسعَ منها، دون أن تفقد خواصها الذاتية.

وفي السياق ذاته؛ يربط الغذامي بين التحويلات والتنظيم الذاتي قائلاً: "هذا التحول يحدث نتيجة التحكم الذاتي من داخل البنية، فهي لا تحتاج إلى سلطان خارجي لتحريكها، والجملة لا تحتاج إلى مقارنتها مع أي وجود عيني خارج

عنها، لكي تقرر مصداقيتها، وإنّما هي تعتمد على أنظمتها اللغوية الخاصة بسياقها اللغوي" (عبد الله الغذامي 2006، ص34)

ونريد أن نضـرِبَ مثالاً على ما سـبق من خصـائصِ البنية بجمعية خيرية. فبما أن هذه الجمعية تجمّعٌ خاص لأشخاصٍ بأعينهم فهي تمثل بنية، هذه البنية تسـمح بتنوعِ الأفرادِ داخلَها بين رجالٍ ونسـاءٍ، بين شـيبٍ وشـبان، بين متزوجينَ وعزّاب، تنوعٌ يتجاوز الفوارقَ الطبقية، أو الاختلافاتِ العقائديةَ، أو الفئات العمرية، ولكنها -في الوقتِ نفسـهِ- لا تسـمح بدخول من لم يحمل "فكرة التطوع والعطاء" من الدخول فيها.

كما يوجد داخلَ هذه البنيةِ أي الجمعية الخيرية قوانينُ تُطبقُّ على عناصرِها، ويوجدُ بين هذه العناصرِ صفاتٌ، وعلاقاتٌ مشتركةٌ، هذه العلاقات هي ما يركزُ عليها الدارسُ البنيويُّ.

من جهة أخرى، فإنَّ مفهوم البنيوية التكوينية عند بياجيه يتجلى أيضًا في تفسـيره لكيفية النموّ واكتسـاب الطفل للغته؛ فمن الناحية البنيوية تطور مهاراته هذا الانتقال يعدّ إعادة تنظيم أساسية في الأنظمة المعرفية والسمعية التي تؤدي إلى البناء التالي، وكل بنية تتأثر بالبنية التي سبقتها، وتأخذ منها عناصر وتضـيف إليها عناصـر جديدة، فالنمو يتميز بظهور أبنية جديدة وهذه الأبنية ليست إضافات كمية كما يعدُّها الاتجاه الميكانيكي بل تغيرًا في التنظيم.

5. الأسس الإبستمولوجية والخلفيات الفلسفية للبنيوية

للبنيوية جذور عميقة في المذاهب الفكرية والفلسفية السابقة، وقد كانت شائعةً في كثير من كتابات القرن التاسع عشر؛ ومنهم ماركس Marx، وفرويد Freud، ودي سوسير F. De Saussure (أحمد أبو زيد، 1995، ص2)، فهي: "وليدة حركات فلسفية وجمالية ونقدية ولسانية مختلفة، وهي ذات صلة وثيقة بحركة

الحداثة، أو هي إحدى مكوّناتها الأساسية؛ وهي متصلة بالدراسات اللغوية الحديثة، ومدرسة النقد الجديد وعلم الجمال، والمدرسة الرمزية، وقد انحدرت من رحم ذلك كلّه" (وليد قصاب، 2009، ص118) الأمر الذي أكسبها ثراءً ومرد ودية تحليليةً كبيرةً نظير تعدّد روافدها وكثرة مكوّناتها.

وقد ظهرت (البنيوية) بدايةً كمذهب فكري مضاد للوضع الذرّي؛ الذي تأسس على الذرة: وهي أصغر أجزاء المادة... هذا التوجّه الذي ساد العالم الغربي في بداية القرن العشرين، وهو وضع تغذَّى مِنْ وانعكس على تشظي المعرفة وتفرعها إلى تخصصات دقيقة متعددة تمَّ عزلها بعضها عن بعض لتجسِّد من ثمَّ (إن لم تغذ) مقولة الوجوديين حول عزلة الإنسان وانفصاله عن واقعه والعالم من حوله، وشعوره بالإحباط والضياع والعبثية؛ ولذلك تعالت الأصوات التي تنادي بالنظام الكلّي المتكامل والمتناسق الذي يوّحد ويربط العلوم بعضها ببعض؛ ومن ثمّة يفسّر العالم والوجود ويجعله مرة أخرى بيئة مناسبة للإنسان.

ولا شك أنّ هذا المطلب مطلبٌ عقدي إيماني؛ إذ أنّ الإنسان بطبعه يحتاج إلى الإيمان مهما كان نوعه. ولم يشبع هذه الرغبة ما كان سائدًا من المعتقدات الأيديولوجية؛ على غرار الماركسية والنظرية النفسية الفرويدية (ميجان الرويلي وسعد البازعي، 2002، ص67-68). فقد افتقرت مثل تلك المذاهب إلى الشمول الكافي لتفسير الظواهر عامة، كما افتقرت أيضا إلى (العلمية) المقنعة. في هذه الظروف ظهرت البنيوية -ولعلّها مازالت منهجية لها إيحاءاتها الإيديولوجية- وسعت لأن تكون منهجية شاملة توحّد جميع العلوم في نظام إيماني جديد من شأنه أن يفسِّر عمليًا الظواهر الإنسانية كافة، علمية كانت أو غير علمية.

وتتلاقى المواقف في البنيوية عند مبادئ عامة مشتركة لدى المفكرين. وفي شتى أنواع التطبيقات العملية التي قاموا بها، ويمكن حصرها في نقاط الاشتراك الآتية (جبور عبد النور، 1984، ص52):

- ✓ السعي لحل معضلة التنوّع والتشتت بالتوصل إلى ثوابت في كلّ مؤسسة بشرية.
- ✓ القول بأنّ فكرة الكلية أو المجموع المنتظم هي أساس البنيوية.
- ✓ بذَلَ العلماء جهدًا كبيرًا لاعتمادها أسلوبًا في كلّ قضايا اللغة والعلوم الإنسانية والفنون، وخلصوا في نهاية المطاف إلى أنَّ البنيوية هي المنهج الصحيح الذي يفضي إلى حقائق ثابتة وعالمية التصديق.

لقد جاءت (البنيوية التكوينية) لتكون تصورًا طبيعيًا لنتاج فكري يعود إلى الفلسفة المثالية من أفلاطون وأرسطو وصولاً إلى ديكارت وكانط؛ فإذا انطلقنا من أفلاطون فالفلسفة المثالية الأفلاطونية إحدى الأسس النظرية للبنيوية التكوينية؛ فهي الفلسفة التي قالت بأسبقية الوعي على المادة؛ بوصفه المكوّن الباني للمادة أو الشكل. وبتعبير آخر أنّ العالم الطبيعي محاكاة لعالم المثل والأفكار الخالصة؛ لذلك فهو ناقص ومزيف وزائل (نور الدين صدار، 2018 ص8-9). وقد راجت هذه الأطروحات وتعمَّقَت أكثرَ حتى استوت على سوقها مع الألماني هيغل، واستمرَ الاعتقاد بأنّ العالم محكومٌ بالفكر والوجود المادي تعبير محض عن ماهية روحية غير مادية، كما أنّ الحقيقة لها وجود ذهني قادر على التحقق عيانًا في الواقع.

وفي الاتجاه ذاته، قَلَبَ كارل ماركس مقولات الفلسفة المثالية، وحدَّدَ وظيفة الفلسفة في تغيير العالم وليس تفسيره بطرائق شتى قد تكون مثالية زائدة ومغالِطَة، كما عدَّ الوجود الاجتماعي للبشر هو الذي يحدّد وعيهم، وليس وعي البشر ما يحدّد وجودهم؛ فكل الأنساق الفكرية (الإيديولوجية) نتاج للوجود الاجتماعي الفعلي، وأنّ المصالح المادية للطبقة الاجتماعية المسيطرة هي التي تحدّد الكيفية التي ينظر بها الناس للوجود على المستوى الفردي والجمعي (رامان سلدن، 1998، ص50).

ويظهر أثر المنهج الماركسي من خلال قول البنيويين السابق؛ حيث يعتقدون أنّ التصرفات والكلام الفردي ليس لهما معنى معزول عن أنساق الدلالة التي تولدها، فهم يربطون بين الأدب كأحد مكونات البنية التحتية (القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات المتغيرة بينهما من صراع طبقي...) وهذا الربط الصريح بين النص كداخل، والواقع كخارج لا يقوم به البنيوي بل يقوم به الماركسي بدرجة أولى، وهنا يظهر مدى تأثير الماركسية على المنهج البنيوي، ودورها في نشأته (صلاح فضل، 1998، ص42-43).

كما يتضح أيضا أنّ "(البنيوية التكوينية) محاولة للتخلص من القيود التي استشعر بها الماركسيون، فكان لابد من إدماج التفكير الاجتماعي بما فيه النقد الماركسي داخل الفكر النسقي، وخصوصًا أنّ الماركسية على وجه التحديد وجدت نفسها مقيدة ضمن سياق عقائدي مغلق" (أحمد يوسف، 2007، ص243) وهنا يتأكَّدُ أنّ (البنيوية التكوينية) تيار هجين للهيكل البنيوي بالروح الاجتماعية.

أمّا الأساس الثاني الذي استلهمت منه (البنيوية التكوينية) فهو الفلسفة الوضعية التي تكتمل بها الثنائية المناقضة التي تعبر عن الصراع الدائم بين المثالي /الميتافيزيقي والوضعي/التجريبي، حيث انعطفت الدراسات إلى الواقع وأصبح الاِهتمام منصبًا على كلّ ما هو واقعي تجريبي (نور الدين صدار،2018، ص7)، وهذا ينسجم مع تركيز البنيوية التكوينية المتأثرة بمقولات التيار الماركسي على الواقع والإنسان والمجتمع والتي صارت تعالج هذه الظواهر بقوانين مشابهة لقوانين العلوم التجريبية.

وليس هذا فحسب، بل إنَّها تطمح لاستثمار أطروحاتها النظرية في التأسيس والتمكين لنظام سياسي اجتماعي ينبني على توجهاتها ويخدمها؛ فالماركسية البنيوية علمٌ يقدّم لنا معرفة علمية عن العالم: "يمكن أن تستخدم في وضع خطة سياسية لإيصال الطبقة العاملة لسدَّة الحكم. أمَّا ممثل الطبقة العاملة فهو

الحزب الشيوعي حامل تلك المعرفة ومهندس الحزب السياسي" (إيان كريب، 1999، ص201).

6. خاتمة

بعد هذا التطواف، الذي أوردنا فيه إضاءات على المرجعيات والأسس المعرفية التي تأسست عليها البنيوية يمكن إجمال مخرجات البحث فيما يلي:

- ✓ شكَّل مصطلح (البنية) محور تجاذبات كبيرة بين عديد التوجهات الفلسفية واللغوية والنفسية والأنثروبولوجية... وحتى الأدبية النقدية.
- ✓ يعدّ مفهوم (البنية) مركزَ الرحى في تيار (البنيوية).
- ✓ (البنيوية) انعكاسٌ لرؤية غربية للوجود، وعلاقة الإنسان به عمومًا.
- ✓ (البنية) وفق جان بياجيه نسق من العناصر التي تنتظم فيما بينها، وترابط وفق علاقات خاصة، تتميز بثلاث خصائصَ هي: الكلية، التحولات، التنظيم الذاتي. وهي في معناها الواسع "طريقةُ بحثٍ في الواقعِ، ليس في الأشياءِ الفرديةِ بل في العلاقاتِ بينَها"، وهذا ما ذهب إليه جان بياجيه.
- ✓ (البنية) و(التكون) بينهما ترابط ضروري، ولا يُشكِّل التكوّن أبدًا إلا طريق المرور من بنية إلى أخرى، ولكن صفة هذا المرور الأساسية هي أنَّه مكون ويقود من الأضعف إلى الأقوى. كما أنَّ البنية لا تشكِّل إلا مجموعة تحويلات ولكن جذور هذه التحويلات هي جذور عملية يتعلق بتكون سابق للأدوات المناسبة.
- ✓ (البنيوية التكوينية) هي دمج للتصور البنيوي مع مقولات النزعة الماركسية الشيوعية التي تربط أطروحات (الماركسية) مع مفاهيم (البنيوية).

وخلاصة القول؛ أنَّ (البنيوية التكوينية) رؤية وتَوَجُّهٌ غَرْبِيٌ بامتياز، تَمَّ تقويضه على يد تيارات (ما بعد البنيوية) التي نقدته، وحدّدت جملةً من عوراته ونقائصه. وكان له تلقّ عربيٍ واسع، ومع ذلك فهذا التيار وغيره لا يزال يستدعي البحث والتنقيب والفحص والتأمل.

7. قائمة المصادروالمراجع

1. ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تحقيق: ياسر سليمان وشادي وفتحي السيد المكتبة التوفيقية، القاهرة، مج1.
2. أبو زيد أحمد،1995م، المدخل إلى البنائية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية الجنائية مصر.
3. أبو مغلي سميح،1997م، الأساليب الحديثة لتدريس اللغة العربية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، عمان.
4. بحري محمد الأمين، 2015م، البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، ط1، منشورات ضفاف، بيروت، دار كلمة، تونس، دار الأمان، الرباط منشورات الاختلاف، الجزائر.
5. بياجيه جان،1985م، البنيوية، تر: عارف منيمنة وبشير يأوبري، ط2، منشورات عبيدات بيروت، لبنان باريس، فرنسا
6. جبور عبد النور، 1984م، المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت.
7. حجازي سمير سعيد، 2004م، إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، دار طيبة مصر.
8. رامان سلدن،1998م، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

9. الرويلي ميغان، والبازعي سعد،2002م، دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت لبنان.

10. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، مصر.

11. ستروك جون، 1996م، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور عالم المعرفة، الكويت، العدد 206

12. شحيد. جمال، 1980م، في البنيوية التكوينية(دراسة)، مجلة المعرفة، السنة التاسعة عشر، العدد225-226.

13. جبور عبد النور، 1984م، المعجم الأدبي، ط2، دار العلوم للملايين، بيروت، لبنان.

14. الغذامي عبد الله، 2006م، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، المركز الثقافي العربي، المغرب.

15. فضل صلاح، 1998م، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط1، دار الشروق، القاهرة مصر.

16. قصاب وليد، 2009م، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، ط2، دار الفكر، آفاق معرفة متجددة، دمشق، سوريا.

17. كريب إيان، النظرية الاجتماعية "من بارسونز إلى هابر ماس"، ترجمة: محمد حسين غلوم مراجعة: محمد عصفور، عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 244.

18. لحمداني حميد، النقد الروائي والإيديولوجي ــ من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النصّ الروائي-ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت الحمراء، الدار البيضاء، الشارع الملكي.

19. المسدي. عبد السلام، 1991م، قضية البنيوية "دراسة ونماذج"، ط1، دار أمية، تونس.

20. نور الدين صدار، 2018م، البنيوية التكوينية "في المقاربات النقدية العربية المعاصرة" ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

21. وغليسي يوسف، 2007م، مناهج النقد الأدبي، ط1، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية الجزائر.

22. يوسف أحمد، 2007، القراءة النسقية "وهم البنية وسلطة المحايثة"، ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت، لبنان.